نثر ابن حجة الحموي ...

بين الصنعة والترسُّل

بقلم

أ. د. أحمد عبد الغفار عبيد

أستاذ الأدب والنقد وعميد الكلية

عرف العرب قديمًا الكتابة، وكانت في بداية أمرها طبيعية خالية من الحلى المتكلفة، أو فضول التعبير، إلا أنها بدأت تعرف الطريق إلى التجمل والتأنق بدءًا من ظهور ديوان الإنشاء واختيار كتاب محترفين يتولون مهام الكتابة، وتوكل إليهم أمورها، واشتهر بين المؤرخين للأدب العربى أن ذلك التحول في مسار فن الكتابة حدث في أواخر عصر بنى أمية على يد سالم الكاتب مولى هشام بن عبد الملك ثم تلميذه عبد الحميد بن يحيى الذي كتب لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية. ثم ازدهرت الكتابة الفنية في العصر العباسي وبلغت الغاية في جمال الصياغة، ودقة التعبير، ووضوح الفكرة، والتأثير في القارئ وإمتاعه، حتى غدت فنًا جميلاً راقيًا يزاحم الشعر، ويقاسمه التعبير عن الإحساسات والخواطر، وذلك بعد أن صارت الكتابة تستخدم في مختلف الأغراض، ولم تقتصر على النمط الديوانى وحده، بل صارت تستخدم في الموضوعات الإخوانية والذاتية الصرفة، وعبَّر مهرة الكتاب بأساليبهم الفنية عن أدق الإحساسات وأعمق الأفكار، وأطرف الخواطر، وتأنقوا في الأساليب، وبرعوا في تلوين العبارات بصورة جعلت من كتاباتهم قطعًا أدبية حافلة بالتأثير و التشويق، وفنون التعبير التي تمتع العقل، وتبهج النفس، وتستحوذ على الإعجاب.

كانت الكتابة الفنية في مراحلها الأولى التي أشرنا إلى بداياتها وخصائصها تستهدف تجلية الفكرة وتنحو منحى التأثير في القارئ وإمتاعه بألوان يسيرة من التجميل والتنميق، من أبرزها توافق الفواصل، وتجانس العبارات، واتساق الجمل وتناسق الفقرات ...، وكان ذلك يأتى في الأعم الأغلب طبعيًا غير متكلف يروق في موضعه، ويترك أثره في المتلقى إقناعًا وإمتاعًا.

ولعل من أشهر من تمثلت في كتاباته هذه السمات كل من عبد الحميد بن يحيى وأبى عثمان الجاحظ، ومحمد بن عبد الملك الزيات، وأحمد بن يوسف ..، ومن نحا نحوهم، وسلك سبيلهم من الكتاب. ثم طرأ على الذوق العام في دولة الخلافة الإسلامية طابع الزخرف المتكلف تأثرًا بما نقل إلى الحضارة الإسلامية من أنماط الحياة لدى الفرس والترك وغيرهم ممن خالطوا العرب وصار لهم تأثير حضارى واجتماعى على نطاق واسع، وصاحب ذلك فيما يخص أساليب الكتابة الغلو في الصنعة البديعية، وتكلف السجع، والتضحية في سبيل تحقق تلك الزخارف الشكلية بالفكرة المطروحة، والمعنى المراد إبرازه، إلى أن غدت تلك الحلى بحد ذاتها هى همُّ الكاتب وبغيته، وهدفه ومقصده .!! وبهذا التحول الثانى في مسار الكتابة الفنية عند العرب نبتت نابتة من محترفي الكتابة المشتغلين بها كل غايتهم زخرفة العبارة وتوشيتها بأصباغ بديعية صارخة، دون أن يكون وراءها فائدة تذكر، أو معنى يبسط، أو فكرة تستجلى ..، ولم تحدث هذه الظواهر طفرة بل تسللت بالتدريج حتى تفاقم أمرها، وعمت بها البلوى !!.

ونستطيع أن نطرح في هذا السياق أعلامًا من مشاهير الكتاب ممن سار بذكرهم الركبان، وتسامع بهم القاصى والدانى من أمثال ابن العميد، وبديع الزمان الهمذانى، مرورًا بأبى العلاء المعرى، والحريرى وانتهاء إلى القاضى الفاضل.

لا أقصد – بالطبع – أن أعمم الحكم في هذا السياق التمهيدى على هؤلاء الكتاب جميعا أو أصفهم بالتكلف، بل أود التأكيد على أن الكتابة الفنية في أدبنا العربى القديم مرت بهذه المراحل، وشهدت تفاوتًا

بين أساليب الكتاب، وكان اصطناع السجع، والرغبة في تلوين الأسلوب بالأصباغ البديعية ملمحًا رئيسيًا في الكتابة من لدن استوت فنا متميزا في العصر العباسى الأول وحتى تخلصت من إسار الصنعة وأثقالها في العصر الحديث.

* * *

يأتى نثر ابن حجة الحموى في نطاق مرحلة التكلف والصنعة المثقلة بأغلال البديع وتعقيداته، بيد أن الملفت للنظر هو وجود لونين متباينين في نتاجه النثرى: لون أو نمط مصنوع متكلف، يجارى فيه أرباب الصناعة من أضرابه، ويحتذى على مثالهم، بل ويعارضهم محاولاً التفوق عليهم فيما يأخذون أنفسهم به من فنون الصنعة وأساليبها. ونمط آخر يخلو من التكلف وينزع إلى التعبير السلس الواضح الذى تتضح فيه الفكرة، وترقُّ العبارة، ونكاد نعتقد أننا نقرأ لكاتب من عصر غير ذلك العصر وأديب من زمن غير ذلك الزمن، ولولا أن النمطين موجودان في كتاب واحد من تأليف ابن حجة لتوقفنا وتشككنا، وهذا ما نميط عنه اللثام في هذه الدراسة الموجزة.

ابن حجة الحموى:

هو تقى الدين محمد بن على بن عبد الله المعروف بابن حجة الحموى. وُلِد في حماة سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٦م وبها نشأ، وكان يعمل في صغره في صناعة الحرير وعمل الأزرار فلقب بالأزرارى، ثم لم يلبث أن ظهرت ميوله الأدبية فأقبل على كتب الأدب ودواوين الشعر يطالعها، وينهل منها، ثم بدأ يقرض الشعر، ويعرض ما يقوله على شيوخ الأدب من علماء حماة وقضاتها، فلقى منهم تشجيعًا ومباركة، فتوثقت صلته بأرباب

الأدب وكتاب الدواوين. ثم سافر إلى دمشق ومدح أعيانها، وكان من أبرز من توثقت صلته به الأمير شيخ المحمودى الذى صار سلطانًا على مصر واشتهر بالمؤيد شيخ، فاستقدم معه في ولايته على مصر عددًا من أصدقائه وخلصائه ببلاد الشام؛ ليعاونوه على النهوض بأعباء ملكه وكان من جملتهم رجلان من أرباب الأقلام، وشيوخ الأدب هما: ابن البارزى، وابن حجة، فوكل إلى ابن البارزى رئاسة ديوان الإنشاء بالقاهرة، وإلى ابن حجة أمر الكتابة فيه، وكانا من قبل ذلك يعملان في ديوان الإنشاء بدمشق. وكان قدوم ابن حجة إلى القاهرة سنة ٨١٥هـ وبقى يعمل في ديوان الإنشاء حتى سنة ٨٣٠هـ فعاد إلى موطنه الأول حماة وظل بها حتى وفاته المنية سنة ٨٣٧هـ.(١)

لم يقتصر ابن حجة على الكتابة الديوانية والإخوانية بل جرَّب قول الزجل وصنع فيه كتابًا، وعالج الشعر في مختلف الأغراض، في المدائح النبوية وفي الحنين إلى الأوطان وغيرها من الأغراض التي أغرم بها نظراؤه وأهل عصره من البديعيات والوصف والألغاز.

وله قصيدة في مدك الملك المؤيد مطلعها:

كأس المسرة في البرية دائر والملك بالملك المؤيد زاهر

ومما حفظ من شعره قوله مضمنًا لشعر امرئ القيس في الرد على أحد إخوانه:

سرت نسمة منكم إلىَّ كأنها "بريح الصبا جاءت بريا القرنفل"

فقلت لليلى مذ بدا صبح طُرسها

"ألا أيهـــا الليـــل الطويـــل ألا انجـــل"

ورقَـتْ فأشـعار امـرئ القـيس بعـدها

" "كجلمود صخر حطه السل من عل"

فقلـــتُ قفـــا نضـــحك لرقَتِهـــا علـــى

" "قفـا نبـك مـن ذكـرى حبيـبٍ ومنـزل"

وهو نموذج يدل على مهارة في صنعة الشعر، شأن أهل الحذق من العلماء ويبدو أن أكثر ما عالجه من الشعر لا يختلف كثيرًا عن ذلك، أما الصنعة الشعرية التي ظهرت فيها مقدرة ابن حجة في النظم فهى منظومته البديعية المشهورة التي شرحها شرحًا مطولاً في كتابه خزانة الأدب، وهى منظومة قصد فيها أن يضمن ناظمها كل بيت فيها لونا أو أكثر من ألوان البديع، "وهى في مائة واثنين وأربعين بيتا، وكل بيت يحمل محسنا من تلك المحسنات، وشرحها شرحًا مطولا، متوسعا في سرد الشواهد الشعرية والنثرية والكتابية مع ما لا يكاد يحصى من ملاحظات على استخدام الشعراء للمحسنات البديعية، بحيث أصبح الشرح – كما سماه – خزانة أدب، وتعد مرجعًا أساسيًا للشعر والشعراء في زمن الأيوبيين والمماليك حتى أيامه.(٢)

من ذلك نخلص إلى أن ابن حجة كان أديبًا يتعاطى فنون الشعر بين الحين والحين، عند توفر دواعيه، أو الرغبة في إظهار القدرة على مهارة الصنعة، ومجاراة أهل عصره.

ومن أهم مؤلفاته: خزانة الأدب، وثمرات الأوراق، وتأهيل الغريب، وكشف اللثام عن التورية والاستخدام، وقهوة الإنشاء، والثمرات الشهية في الفواكه الحموية، ومجرى السوابق، وتغريد الصادح.

نثر ابن حجة أنماطه وخصائصه:

يجمل بنا إذًا بعد أن ألمحنا إلى حياة ابن حجة الحموى ومجمل نتاجه أن نقف على نتاجه النثرى وهو كما سنرى نمطان متميزان: نمط إبداعى أو فلنقل بتعبير عصره (إنشائى) مصنوع، ونمط تأليفي خال من الصنعة مطلق من قيودها وأثقالها، وهذه الظاهرة تبدو للوهلة الأولى غير مقصورة على النتاج النثرى لابن حجة وحده بل يشركه فيها كثيرون من علماء عصره، ومن كتاب العصر الوسيط بصفة عامة، بيد أننا نرصدها في مؤلفات ابن حجة وإبداعاته، ونلفت نظر الباحثين المهتمين بمثل تلك الظواهر؛ ليولوها عنايتهم،و ويضعوها على بساط البحث.

والعجيب أن نرى اللونين كليهما في تراث ابن حجة الحموى، وربما صادفناهما في مؤلف واحد من مؤلفاته، وكأننا عندما نستعرض قطعة أو فصلاً من هذه وتلك أمام لونين متباينين كل التباين، متباعدين أشد التباعد، لا نكاد نصدق أنهما صدرا من نبع واحد، وأفرزتهما قريحة واحدة. وسأقتصر في بيان ظاهرة الازدواجية في الأسلوب هذه عند ابن حجة على مقتطفات من كتاب": ثمرات الأوراق "ذلك المؤلَّف البديع الذى جمع فيه ألوانًا من نفائس الأدب، ومنتخب الطرف والأخبار، وبارع الأشعار والطريف من الرسائل ومقتطفات من كتب السير والتاريخ والمسامرات والقصص وأخبار العلماء وبدائع أصحاب التصانيف.

وإلى جانب ذلك كله ضمن ابن حجة كتابه "ثمرات الأوراق" نماذج من إنشائه هو، منها رسالة دبجها في مناسبة وفاء النيل وكان وقتها بمصر سنة تسع عشرة وثمانمائة (٨١٩هـ)، وكانت العادة جارية على إقامة مهرجانات واحتفالات بتلك المناسبة، يشارك فيها الشعراء والخطباء والكتاب، ويحتشد الناس ويظهر أن ابن حجة كان معتدًا بهذه الرسالة ومن ثم قرظها، وأشاد بصنيعه فيها بقوله في التقديم لها:

... "لم أسبَق إليها ممن تقدمنى من المنشئين بالديار المصرية[٣]"...

وذكر بعد أن ساق نص الرسالة رسالة أخرى تقترب منها في مضمونها، وهى الرسالة البحرية التي كتب بها - على حد قوله - "إلى علامة عصره الشيخ بدر الدين الدمامينى فسح الله في أجله من القاهرة المحروسة إلى ثغر الإسكندرية المحروسة عند دخولى إليها من ثغر طرابلس الشام[٤]" ...

والرسالتان كلتاهما تغصان بالصنعة، وتغرقان في ألوان الجناس والتورية والتضمين وألوان البديع؛ مما يحوج القارئ إلى التأمل والتفكير في مقصد الكاتب ومراده، في حين أننا في مواضع كثيرة من كتاب ثمرات الأوراق نرى ابن حجة عندما ينقل عن سابقيه، أو يحكى طرائف ومسامرات أو مساجلات - يأتى أسلوبه سلسًا مطلقًا يتميز بالوضوح، ونصوع الفكرة، وجلاء المقصد، ولا يلتاص أو يغمض.

وها نحن أولاء نعرض مقتطفات من رسالتيه اللتين سبق التنويه بهما، ثم نتبع ذلك بألوان من أساليب الكتابة التي تخلى فيها عن تكلف الصنعة، واستخدم التعبير المطلق الواضح الدلالة.

النثر المصنوع:

يتمثل كما ألمحنا في رسائله التي يعمد فيها إلى التصنع، ويحشد ما يتأتى له من ألوان البديع، وفنون المحسنات، وكأن القصد إلى الصنعة كان يضطر ابن حجة ومن على شاكلته من الكتاب إلى التكلف، ويقتضيهم الغموض، ويبعدهم عن العبارة السلسة الواضحة، ها هو ذا يقول في رسالة وفاء النيل مصورًا أثر ا لفيضان وما يسديه للوادى من خير عميم:

... "وسقى الأرض سلافته الخمرية فخدمته بحسن النبات، وأدخله إلى جنات النخيل والأعناب فالق النوى والحب، فأرضع جنين النبت، وأحيا له أمهات العصف والأبّ، وصافحته كفوف الموز فختمها بخواتمه العقيقية، ولبس الورد تشريفه وقال أرجو أن تكون شوكتى في أيامه قوية، ونسى الزهر بحلاوة لقائه مرارة النوى، وهامت به مخدرات الأشجار فأرخت ضفائر فروعها عليه من شدة الهوى، واستوفي النبات ما كان له في ذمة الأرض من الديون، ومازج الحوامض بحلاوتها فهام الناس بالسكر والليمون ...، ورسم لمحبوس كل سدٍّ بالإفراج، وسرح بطائق السفن فخفقت أجنحتها بمخلق بشائره، وأشار بأصابعه إلى قتل المحل فبادر الخصب إلى امتثال أوامره(٥)" ...

وهكذا يطوف ابن حجة في رسالته مصورًا مظهر وفاء النيل فيرسم لذلك الحدث المهم صورًا مبهرة جهد في تدبيجها وتلوينها بأصباغ البديع، وألوان الحلى اللفظية، وهى لا تعدو أن تكون تعبيرًا عن معالم النضارة والخصب الذى تناله الزروع والثمار التي تغاديها مياه النيل فتبعث فيها الحياة، وتجعلها تبدو في أبهى صورها، وأكمل نضارتها وخصبها، وهذا معنى واضح في العقول والأذهان يعرفه الجميع، ولا يرتاب في حقيقته

أحد، ولكن ابن حجة عرضه علينا في ذلك المعرض التصويرى الغارق في الحلية اللفظية، مخيلاً ماء النيل حال الفيضان بالخمر الصافية، وعندما وصلت مياهه إلى جنات النخيل والأعناب ارتوت الأرض وحييتْ الزروع والأشجار، وأفاض بعد ذلك في وصف عناقيد الموز، وأنواع الورود، وأغصان الأشجار المنسدلة .. إلى آخر ما وصف، وهو يلجأ إلى التصوير والتخييل، والتورية، والتجسيم وغيرها من فنون البديع إلاَّ أننا لو حاولنا أن نجد وراء ذلك فكرة تستجلى، أو معنى يجتلب فسيعيينا ذلك، وهذا يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن العبارات سيقت بقصد إبراز مهارة الكاتب في الحلية البديعية وتوشية الصور ولا شئ سوى ذلك .!!

أما الرسالة البحرية فيقول منها: "يا مولانا وأبتك ما لقيت من أهوال هذا البحر، وأحدث عنه ولا حرج فكم وقع المملوك من أعاريضه في زحاف تقطَّع من القلب مما دخل إلى دوائر اللجج، وشاهدت منه سلطانًا جائرًا يأخذ كل سفينة غصبا ونظرت إلى الجوارى الحسان وقد رمت أُزُرَ قلوعها، وهى بين يديه لقلة رجالها تسبى، فتحققت أنَّ رأىَ من جاء يسعى في الفلك جالسًا غير صائب، واستصوبت راء من جاء يمشى وهو راكب، وزاد الظمأ بالمملوك وقد اتخذ بالبحر سبيله ...، وخلص المملوك من كدر المالح إلى النيل المبارك فوجده من أهل الصفا، وإخوان الوفا، وتنصَّل من ذلك العدو الأزرق ذى الباطن الكدر، وجمع من عذوبة النيل ونضارة شطوطه بني عين الحياة والخضر، وتلا لسان الحال على المملوك وأصحابه "ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين،وقضى الأمر وقيل بعدًا للقوم الظالمين[٦]".

وهذه الرسالة لا تختلف كثيرًا عن رسالة وفاء النيل، وإن زاد فيها التورية بمصطلحات العلوم، ومنها مصطلحات العروض في بداية الفقرة مثل عبارات: "البحر"، و"أعاريض"، و"زحاف"، فضلاً عن الاقتباس من القرآن الكريم في مثل قوله: "سلطانًا جائرًا يأخذ كل سفينة غصبا"، و"ادخلو مصر إن شاء الله آمنين"، "وقضى الأمر"، و"قيل بعدا للقوم الظالمين"، وتوريته بمثل قوله "عين الحياة"، "الخضر ..." إلى آخر ما ذكر.

وقبل أن نستعرض النمط الآخر من نثر ابن حجة نتوقف عند فقرة من رسالة للقاضى الفاضل في الحمام الزاجل لنرى مبلغ التباين بين صنعة كل منهما، يقول القاضى الفاضل:

..."وتحمل من الأخبار ما تحمله الضمائر، وتطوى الأرض إذا نشرت الجناح الطائر وتزوى لها الأرض حتى ترى ما سيبلغه ملك هذه الأمة، وتقرب منها السماء حتى ترى ما لا يبلغه وهم ولا همة، وتكون مراكب الأغراض والأجنحة قلوعًا، وتركب الجو بحرًا تصفق فيه هبوب الرياح موجًا مرفوعًا ...، وإذا أنيطت بالرقاع، صارت أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع، وقد باعد الله بين أسفارها وقربها، وجعلها طيف خيال اليقظة الذى صدق العين وما كذبها، وقد أخذت عهود أداء الأمانة في رقابها أطواقًا، وأدنت من أذنابها أوراقًا، وصارت خوافي من وراء الخوافي ...، وهى أنبياء الطيور لكثرة ما تأتى به من الأنباء، وخطباؤها، لأنها تقوم على منابر الأغصان مقام الخطباء(٧)".

ولعل القارئ يلحظ بُعْدَ ما بين الأسلوب لدى القاضى الفاضل وابن حجة فأسلوب القاضى الفاضل أكثر وضوحًا، وأقل تكلفا، وصنعته

مستساغة، واستعاراته مشوقة، وعلى الرغم مما في رسالة القاضى من توريات واقتباس إلا أنه لم يبعد فيها ولم يغرب كما لاحظنا لدى ابن حجة، وا لقصد من إيراد هذا النموذج في ذلك السياق أن ابن حجة مفتون بالقاضى الفاضل، وقد أورد رسالته هذه في كتابه الثمرات مثنيًا على إنشائه مشيدًا به، وها نحن أولاء نستوثق من أن كاتبنا ينحو نحو القاضى الفاضل ولكنه لا يبلغ شأوه في إبداعاته الكتابية.

النثر المطلق:

ونعنى به ذلك الأسلوب الذى استخدمه ابن حجة في تأليف كتابه الثمرات وبسط الموضوعات التي أشرنا إلى أنه ضمنها كتابه، ومنها ألوان من النفائس وطرائف ا لأخبار والأشعار والرسائل والقصص ...، وأسلوب ابن حجة التأليفي سلس مطلق لا تكلف فيه ولا تصنع، وكأننا ونحن نقرأ ما سطره أمام كاتب آخر بل أديب لا يمت إلى صاحب الرسائل الإنشائية المتكلفة بصلة.

هذه فقرة من ثمرات الأوراق يتحدث فيها عما يسمِّيه الكُتَّاب حرفة الأدب فيحكى خبرًا عن عبد الله بن المعتز، ويذكر أنه كان مع كماله وغزارة فضله لم يزل منغَّصا في مدة حياته، بُويع له بالخلافة، وظنَّ أن الحظ قد تنبه له، فلم يتم الأمر له إلا يومًا واحدًا ... على أنه ما وافق على ولاية الأمر حتى اشترط عليهم ألا يسفكوا دمًا، ومحله من الأدب لا يخفي" ... وبعد أن أورد الخبر إلى نهايته يستأنف كلامًا جديدًا يصدره بما يؤكد أنه من كلامه هو بقوله:

"قلت: وما برح الزمان مولعًا بخمول أهل الأدب وخمود نارهم؛ كان الملك الأفضل نور الدين على بن صلاح الدين يوسف من

كبار أهل الأدب، وكان حسن السيرة متدينًا، قلَّ أن عاقب على ذنب، وله المناقب الجميلة وكان أكبر إخوته، ومع كمال صفاته وآدابه التي سارت بها الركبان - ما صفا له الدهر، ولا هنئ بالملك بعد أبيه صلاح الدين رحمه الله تعالى. لبث مدة بدمشق المحروسة، ثم حضر إليه عمه العادل، وأخوه الملك العزيز عثمان، فأخرجاه من ملكه بدمشق إلى صرخد، ثم جهزاه إلى سميساط، ثم كتب إلى الإمام الناصر ببغداد يقول هذا الشعر:

مولاى إنَّ أبا بكر وصاحبه عثمان قد منعا بالسيف حقَّ عِلى

فانظر إلى حظِّ هذا الاسم كيف لقى

من الأواخر ما لاقى من الأوَل

فكتب الناصر الجواب؛ ولكن الفرق مثل الصبح:

وافي كتابك يا بن يوسف معلنا فالصدق يخبر أن أصلك طاهر

غصبوا عليا حقَه إذ لم يكن بعد النبي له بيثرب ثائر

فاصبر فإن غدا عليه حسابهم

وابشر فناصرك الإمام الناصر

ولم ينصره الإمام الناصر، بل توفي فجأة بسميساط رحمه الله(٨)".

والخبر كما حكاه ابن حجة يعرض قضية الصراع على السلطة التي لا يفوز في حلبتها إلا أهل الدهاء والخداع والدس، أما من تحلَّوْا بدماثة الخلق، وكمال الأدب، فهم غالبا ما يخسرون في تلك الحلبة، ويقصون عن باحات السلطة، وتغتصب حقوقهم، ولا يجدى عليهم أدبهم وطيب شمائلهم شيئًا في هذا الميدان.

وأسلوب ابن حجة في حكاية الخبرة سلس واضح لا غموض فيه ولا تعقيد، وقد كشف الكاتب عن ذوقه النقدى في إشادته بأبيات الملك الأفضل مبينًا تميزها على ما أجاب به الملك الناصر، وإن لم يشرح أسباب ذلك، إلا أن أرباب البصر بالشعر يدركون ذلك البون الشاسع بين هذا وذاك، وكأنى بابن حجة قد لمس ذلك فاكتفي بالعبارة الدالة – على إيجازها – وهى قوله ..: "وإن كان الفرق مثل الصبح "أى أنه واضح لا يحتاج إلى دليل .!!

وهذا نموذج آخر من نثره التأليفي، نقتبسه من فصل له عن السجع يقول فيه: .. "السجع مأخوذٌ من سجع الحمام، واختلف فيه، هل يقال في فواصل القرآن أسجاع؟ أم لا؟. فمنهم من منعه، ومنهم من أجازه، والذى منع تمسك بقوله تعالى: ﴿**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ**﴾ [فصلت: ٣]، فقال: قد سماه فواصل، فليس لنا أن نتجاوز ذلك(٩)".

ثم يقول في المبحث نفسه": ومن فوائد الإنشاء أن تكون كل فاصلة مخالفة لنظيرتها في المعنى؛ لأن اللفظ إذا كان من القرينة بمعنى نظيره من الأخرى لم يحسن، كقول الصاحب بن عباد في وصف منهزمين": طاروا واقين بظهورهم صدورهم، وبأصلابهم نحورهم "فالظهور بمعنى الأصلاب، والصدور بمعنى النحور ...، ومن فوائد الإنشاء التي يتسع فيها المجال على المنشئ: أن السجع مبنىٌّ على الوقف، وكلمات الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز موقوفًا عليها؛ لأن الغرض أن يجانس المنشئ بين القرائن ويزاوج، ولا يتم له ذلك إلا بالوقف، إذ لو ظهر الإعراب لفات ذلك الغرض، وضاق المجال على قاصده، فإن

قافية السجعة إذا كانت في محل نصب وأختها في محل رفع ساوى بينهما السكون، وصار الإعراب مستترا[١٠]".

فانظر إلى أى مدى اقترب ابن حجة في عبارته، وأفصح كلامه عن المعنى المراد في جلاء وحسن بيان. وهكذا نجد أنفسنا أمام نمطين متباينين أشد التباين:

– نمط إنشائى مصنوع غارق في التكلف.

– نمط تأليفي وصفي يتسم بالطلاقة والترسل، وترك التعمل والتكلف.

وهذه الظاهرة التي تبدو جلية على ضوء ما تقدم تثير تساؤلاً محيراً مؤداه أن وسائل التعبير الواضح الجلى كانت متاحة ميسورة لهؤلاء الأعلام فلم حاد عنها أولئك الكتاب؟ ولم آثروا في إنشائهم المصنوع هذه الأصباغ الصارخة؟ هل تصوروا أن الإنشاء لا يكون موسومًا بالبراعة الفنية، والمهارة الأدبية إلا إذا أتى على ذلك النمط المصنوع؟ أو أن إعجاب بعض النقاد بأنماط الكتابة المصنوعة وثناءهم على أربابها كان وراء رسوخ هذه الظاهرة واستشرائها دون أن تجد من يوجه إليه سهام النقد أو يكشف عن سلبياتها وتعقيداتها اللئام؟ تساؤلات عديدة تثيرها هذه الظاهرة التي تقتضى مزيدًا من الدراسات الجادة التي تجلى جوانبها، وتطرح بواعثها وأسباب استشرائها من جانب، كما تناقش دواعى انحسارها ومن ثم اختفائها في نهاية المطاف من جانب آخر.

* * *

الهوامش:

١- اعتمدت في ترجمة ابن حجة وأخباره على: شذرات الذهب. ٢١٩/٧، والنجوم الزاهرة ٩٨/١٥، عصر سلاطين المماليك، د/ محمود رزق سليم ١٥٢/٦، تاريخ الأدب العربى - العصر المملوكى، د. عمر موسى باشا. /٥١٢.

٢- عصر الدول والإمارات - مصر والشام، د. شوقى ضيف /٧٩١.

٣- ثمرات الأوراق لابن حجة الحموى، ٣٤٦/ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. الخانجى بمصر/ ١٩٧١م.

٤- الثمرات/ ٣٤٩.

٥- المرجع السابق/ ٣٤٧.

٦- نفسه/ ٣٠٤، ٣٥٣.

٧- نفسه/ ١٣٤.

٨- نفسه/ ٢٢.

٩- الثمرات/ ٤١٠.

١٠- المرجع السابق/ ٤١٣، ٤١٤.